

الاستقلال الضائع

بقلم الكولونيل شربل بركات

في الثاني والعشرين من تشرين الثاني يصادف عيد الاستقلال، وفي هذه الذكرى نترحم على الاستقلال الذي كان نعمة لم نستأهلها. كثيرون منا "استكثروا" أن يكون لنا وطننا مستقلاً وخافوا من عيون الحاسدين أو غيرة الحاقدين. وقد بقينا نساير ونداري خوفاً من أن نجرح مشاعر الآخرين، بينما كان هؤلاء يهاجموننا بسبب أو بدون سبب ويلعبون على كل التناقضات التي شكلت المجتمع اللبناني والتي كان يجب أن تشكل قوته ومنعته، حتى وقع الوطن في الاعتقال، وأصبح الحكم رهينة، والزعامات مطية، والمسؤولين كما في العهود الغابرة من أيام السلاطين، يعينون جباة وأجراء عند الحاكم الفعلي الذي هو غريب عن البلاد وأهلها يحكمها بالبطش والقهر الأسلحة المعتادة لتثبيت الاغتصاب والسيطرة من غير وجه حق...

ويقولون لنا لماذا لا تعيدون الاستقلال

وكيف نعيد والاستقلال مسجون في أقبية القهر؟

وماذا نعيد والغرباء يستبيحون الديار ويفرضون نظامهم، ينكلون بالناس ويسرقون لقمة عيشهم ولا من يسأل. إن اعترض أحد يرجم فوراً بالعمالة لإسرائيل وبالعامل على إعادة شبح الحرب، وكأنه لم يعد لنا سوى الذل أو الحرب؟

صحيح أن الشعوب تستحق استقلالها ولا يعطى الاستقلال بل يأخذ، ولكن كيف نعيد استقلالاً قد أخذ منا وصُودر تحت شعار الأخوة حيناً، والعلاقات المميزة حيناً آخر؟

كيف نعيد استقلالاً ونحن نُقصر عن حكم أنفسنا ولا تحل خلافاتنا إلا بمرسوم يصدر من خارج الحدود، أو من أحد المفوضين الساميين؟

كيف نعيد استقلالاً ولا قدرة لنا على إبداء الرأي، ولا حق لنا للمفاوضة على استرجاع أرضنا بحجة التنسيق والأخوة؟

كيف نعيد استقلالاً ونحن في بلدنا أولاد الجارية، بينما أولاد الست يستبيحون البلاد طويلاً وعرضاً؟

كيف نعيد استقلالاً ونحن صاغرون يفرض علينا كل يوم نوع جديد من المعانات وتوقع باسمنا معاهدات واتفاقيات لا نعرف مضمونها، ولا نعلم إن كان لمن يوقعون الحق بالاطلاع على ما يوقعون ؟

لقد كان النظام اللبناني فيما مضى من الأنظمة الديمقراطية الراقية وكان يُدرس في مدارس العالم كمثال للتمثيل الصحيح في المجتمعات المركبة من مجموعات حضارية مختلفة. وتحت شعار الغبن تارةً والحرمان تارةً أخرى، وتحت شعار التوازن وغيره من الشعارات، فرضت علينا أنظمة جديدة زادت الغبن حتى أصبح حصة كل المواطنين، ونشرت الحرمان حتى أضحي قاعدة وطنية، ونسفت التوازن حتى لم يعد هناك إمكانية للوقوف، وبتنا وطننا يحتضر ولا من يهتم. وقد اختل الاقتصاد وتهجر المواطنون ليحل محلهم مئات الألوف من الأثقياء يسرقون لقمة الفقير ويفرضون "الخوات" على الميسورين ويلطخون شوارعنا وساحاتنا بأسواقهم المتنقلة وعيونهم الراصدة لكل حركة وآذانهم المتنصتة على كل حديث ليغيروا مبدأ الحرية التي نعمنا به زمنا طويلا وتحملنا من أجلها شقاءً ونضالاً، واستحقينا معها الاستقلال الحق.

فيا أيها السائلون كيف تريدوننا بهذه الحالة أن نعيد ما هو مسلوب ونتظاهر بالفرح ونحن في جنازة والفقيد لا يزال في البيت؟

نعم سنذكره وسنصلي على روحه وسوف نحيا إيماننا بأنه لا بد آت ذلك اليوم الذي سيعود فيه هذا الاستقلال إلى الحياة، ويومها ستكون أفراح لنا لم يشهد مثلها العالم.

نعم وسنعيد في بيروت وفي صنين وفي عين إبل،

وسنعيد في زحلة وبشري وبعبك وطرابلس،

وسنعيد في صور ونعيد لها أمجادها،

وفي جبيل ودير القمر وبعقلين،

نعم وسيفرح لبنان بترابه وأهله وسيزهو الأرز الذي مرض من الذل وسيضحك الثلج في التلال

أبيضاً كلبنان حراً طليقاً كما كان وكما يجب أن يبقى.

عشتم وعاش لبنان السيد الحر المستقل.